مهديو بنى العباس

بقلم الأستاذ مصطفى جواد (بغداد)

المهدية من المؤثرات الشديدة فى تاريخ الاسلام، وهى اجتهاد فى سياسة الاسلام كالاجتهاد فى فقهه ، ولقد تنازع المهدية بنو أمية باسم السفيانى ، والخوارج باسم الشارى، وبنو هاشم باسم المهدى ، فكان منهم الغالى والمقصر وسالك الجدد .

ولظهور هذا المذهب فى الاسلام عدة علل أهمها :

(ا) قول الرسول ـ ص ـ : لا نبى بعدى (ب) ودعم السلطة الدنياوية بالدين (ح) وأحاديث نبوية عامة أريد بها كفاح الاستبداد وقطع الإفساد (ء) الخروج من ربقة الدين بحكم الدين ، فعل من يتداوى من الشىء بمثله سعياً إلى الإمارة والثراء ؛ وإذ علمت أن هؤلاء الثائرين على الدولة الاسلامية كانوا بين صالح وطالح ، أيقنت أن الطالحين يضعون أخباراً أو يستوضعونها لتحلة ما شرعوا فيه ولاتقاء طعن الدين بمجن منه ، فكثرت الأحاديث المكذوبة على الرسول ـ ص ـ والإمام على ـ ع ـ والصحابة الكرام ، وألفت فى ذلك كتب كثيرة فى عهود مختلفة ، وإذا ما أنعمت النظر فى أحدها وجدت أحاديثه كاريح النكباء يلطم بعضها بعضاً ، فلا تعلو منه بطائل ولا تقف منه على حجة ، وكان من شأن وضاع هذه الأحاديث أن يلحقوا بها أخبار علامات طبيعية واجتماعية وسياسية منتزعة من أحوال عهدهم ، ليوقن العوام بصدق هذا المهدى الذى هو نتيجة لتلك المقدمات . ففى حديث من هذه الأحاديث ـ وقد صدره مؤلف الكتاب ـ أن الرسول ـ ص ـ لما عرج به إلى ربه تعالى، أتاه نداؤه بالخصائص العظم والمراتب العلى ، ويقول فيه الله للصادق الأمين « وأعطيتك أن أخرج من صلبه أحد عشر مهدياً كلهم من ذريتك من البكر البتول ، وآخر رجل منهم يصلى خلفه عيسى بن مريم يملأ الأرض عدلاً كما ملئت منهم ظلماً وجوراً ، أنجى به من الهلكة، وأهدى به من الضلالة، وأبرىء به من العمى ، وأشفى به المريض ، فقلت إلهى وسيدى ! متى يكون ذلك ؟ فأوحى إلى ـ جل وعز ـ يكون ذلك إذا رفع العلم وظهر الجهل وكثر الفساد وقل العمل وكثر القتل وقل الفقهاء الهادون وكثر فقهاء الضلالة والخونة وكثر الشعراء واتخذوا قبل قبورهم مساجد وحليت المصاحف وزخرفت المساجد وكثر الجور والفساد وظهر المنكر وأمرت أمتك به ونهوا عن

المعروف واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء وصارت الأمراء كفرة وأولياؤهم فجرة وأعوانهم ظلمة وذوو الرأى منهم فسقة ، فعند ذلك ثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وخراب البصرة على يد رجل من ذريتك يتبعه الزنوج وخروج رجل من ولد الحسين بن على وخروج الدجال يخرج بالمشرق من سجستان وظهور السفياني »[1]

فهذه أمارات عامة وأحوال متعارفة فى كل دولة استمكن الضعف منها ، وقبحت الأخلاق فيها وكثرت الحروب فيها كالدولة العباسية فى أواسط القرن الثالث للهجرة ؛ فهذا الحديث ـ فى رأينا ـ من موضوعات صاحب الزنج الذى ثار بالبصرة فى خلافة المهتدى سنة ٢٥٥ هـ ، وكان يزعم أنه على بن محمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وأكثر الناس يقول إنه دعى آل أبى طالب ، وكان يرى رأى الخوارج الأزارقة ، لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل تشهد بذلك ، قال المسعودى : « فكانت مدة أيامه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر . يقتل الصغير والكبير والذكر والأنثى ويحرق ويخرب ، وقد كان أتى بالبصرة فى وقعة واحدة على قتل « ثلثمائة » ألف من الناس ، وقد كان المهلبى من علية أصحاب على بن محمد بعد هذه الوقعة بالبصرة ، فنصب منبراً بالموضع المعروف بمقبرة بنى يشكر . . يخطب على ذلك المنبر لعلى بن محمد ويترحم بعد ذلك على أبى بكر وعمر ولا يذكر عثمان ولا علياً فى خطبته »[2] .

وقال السيوطى : « وكان له منبر فى مدينته يصعد عليه ويسب علياً وعثمان ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة »[3] ، وقال المسعودى : « وبلغ من أمر عسكره أنه كان ينادى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس وغيرهم من ولد هاشم وقريش وغيرهم من سائر العرب وأبناء الناس ، فتباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها : هذه ابنة فلان الفلانى زنجى منهم العشر والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ويخدمن النساء والزنجيات كما تخدم الوصائف ، ولقد استغاثت إلى على بن محمد امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت لبعض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه فقال : هو مولاك وأولى بك من غيره »[4] ، وجاء فى نهج البلاغة بعنوان « ومن كلام له عليه السلام فيما يخبر به عن الملاحم بالبصرة ما أصله « يا أحنف كأنى به وقد سار بالجيش الذى لا يكون له غبار ولا قعقعة لجم ولا حمحمة خيل ، يثيرون الأرض بأقدامهم كأنها أقدام النعام ، وبل لسككهم العامرة والدور المزخرفة التى لها أجنحة كأجنحة النسور وخراطيم كخراطيم الفيلة ، أولئك الذين لا ينتدب

(١) ص ٣ و ٤ من بشارة الاسلام (٢) مروج الذهب « ٢ : ٤٣٩ و ٤٤٦ » (٣) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٣ من طبعة الهند (٤) مروج الذهب : ص ٤٤٧

قتيلهم ولا يفقد غائبهم . . . » ، قال الشريف الرضي أبو الحسن : « يومىء بذلك إلى صاحب الزنج »[1] ، وسبيل هذا الخبر كسبيل ذاك ، وقد خفي أمره على الشريف الرضي رحمه الله .

أما الخسف الذي أشار إليه في الحديث الأول واضعه فقد حدث ، قال السيوطي : « وفي سنة اثنتين وأربعين (ومائتين) زلزلت الأرض زلزلة عظيمة بتونس وأعمالها والري وخراسان ونيسابور وطبرستان وأصبهان ، وتقطعت الجبال وتشققت الأرض بقدر ما يدخل الرجل في الشق ، ثم قال : وفي سنة خمس وأربعين (ومائتين) عمت الزلازل الدنيا وخربت المدن والقلاع والقناطر وسقط من أنطاكية جبل في البحر »[2] .

أما خسف جزيرة العرب فقد قيل فيه : إن جبلاً باليمن تحول من موضعه سنة ٢٤٢ هـ واستقر في موضع آخر ، فكيف كان استقراره بلا خسف ولا غور في الموضع الجديد ؟

وأما الدجال الذي رمز إلى خروجه ببلاد سجستان فهو « يعقوب بن الليث الصفار » ، ولعل أسهل أمارة ذكرها تختلق ذلك الحديث خروج رجل من ولد الحسين بن علي ـ ع ـ ، فلو كان قد قال « خروج رجال من ولد الحسين » لكان موفقاً في كذبه ، فقد ثار كثير من ولده في هذا العهد ، وتجد أخبارهم في كتب التاريخ ، ولا سيما « مقاتل الطالبيين » لأبي الفرج الأصفهاني ، وأشهرهم وأصلحهم « يحيى » الذي رثاه ابن الرومي بقصيدة أنافت على مائة بيت وعشرة ، فانظر كيف كانوا يلفقون بين الحوادث السياسية والطبيعية والاجتماعية عند توليدهم الأحاديث ، وما أطلنا الكلام إلا لنضرب مثلاً ونشرع أسلوباً للتحقيق وننبه من لم يقف على تلبيس المفسرين في أرض الله وهم يدعون أنهم مصلحون .

فالعباسيون كانوا مشاركين للعلويين في المهدي ، وكان الحزبان كلاهما يحاربان الأمويين حرباً دينية أدانها ولأمتها « أن المهدي من بني هاشم » . ففي حديث من أحاديثهم أنه جاء رجل إلى الإمام علي ـ ع ـ فقال له : يا أمير المؤمنين نبئنا بمهديكم هذا ، فقال « إذا درج الدارجون وقل المؤمنون وذهب المجليون (كذا) فهناك » ، فقال يا أمير المؤمنين ممن الرجل ؟ فقال : من بني هاشم من ذروة طود العرب وبحر مفيضها إذا وردت ومجمع أهلها إذا أتت .

ولما أشرف العباسيون على النصر وقاربوا الفلج ابتدعوا أحاديث تشير إليهم وتذكر شاراتهم وتمدد أعوانهم ، استعداداً للاستئثار على العلويين وتذرعاً إلى حرمانهم الملك العقيم .

فمن ذلك ما جاء في كتاب البيان عن ثوبان قال : قال رسول الله ـ ص ـ يقتتل عند كنزكم (كذا) ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا تصير إلى واحد منهم ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونهم قتلا لم يقتله قوم ، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه ، قال رسول الله ـ ص ـ فاذا رأيتموه

(١) شرح ابن أبي الحديد « ٢ : ٤١٠ » (٢) تاريخ الخلفاء : الجزء الخامس ص ٣٥٤

(أو رأيتم أميره) فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه خليفة الله المهدى »،وأخرج هذا الحديث ابن ماجه القزوينى فى سننه (١)

أفليس هذا الحديث قد وضع لوصف رايات بنى العباس السود التى دلفت من بلاد إيران مغربة إلى العراق فالشام ؟ بلى ورب العزة ، ولقد هال سوادها مروان بن محمد يوم الزاب الأعلى ، ويزيدك إيماناً بما قلنا ماورد فى رسالة العدل المختصر فى علامات المهدى المنتظر لشهاب الدين بن حجر ، فالعلامة التاسعة قال عنها: « تخرج رايات سود يقاتل السفيانى فيهم شاب من بنى هاشم فى كفه اليسرى خال وعلى مقدمته شعيب بن صالح التميمى »،والعاشرة « تخرج قبله خيل السفيانى بالكوفة ويخرج أهل خراسان فى طلب المهدى فيلتقى هو والهاشمى برايات سود على مقدمته شعيب بن صالح فيلتقى هو والسفيانى فى باب اصطرخ(٢) فتكون بينهما ملحمة عظيمة فتظهر الرايات السود وتهرب خيل السفيانى، فعند ذلك يتمنى الناس المهدى ويطلبونه » (٣)

وأكثر أحاديث الرايات السود على هذا الطراز ، أما السفيانى إذ ذاك فهو مروان الحمار، وقد يطلقونه عند الحاجة الملحة على قائد من قواده وعلى كل خارجى يحب بنى أمية ، أما شعيب بن صالح التميمى فتراه مصحفاً عن «شعيب بن صفوان الثقفى» وهو من صحابة المنصور .

قال الخطيب : «أخبرنى محمد بن على الأصبهانى . . . قال : سألت أحمد بن حنبل عن شعيب ابن صفوان فقال : كان ها هنا مع الصحابة ـ يعنى صحابة أبى جعفر ـ » (٤)، ولقد ورد فى خرافات اليمن خبر شعيب بن صالح ، لكننى استبعدت أن يريد العباسيون الأبعد ويتركوا صاحبهم الأقرب ، ففى وصية الملك « عمران بن عامر » ما صورته « ويغلب أهل الأوثان فى آخر الزمان أهل الأديان فيخرجونهم من البيت الحرام ويخربونه ، فيرسل الله عليهم رجلاً من حمير يقال له « شعيب بن صالح » فيهلكهم ثم يخرجهم منه فلا يكون بالدنيا إيمان إلا بأرض اليمن » (٥). وأياً كان رأى فليس ببعيد أنهم أرادوا به القحطانى ، فقد ذكروا حديثاً عن رسول الله ـ ص ـ قال :« سيكون بعدى خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك جبابرة ثم يخرج المهدى من أهل بيتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ثم يؤمر القحطانى، فوالذى بعثنى بالحق ما هو دونه » ،رواه أبو نعيم أيضاً فى فوائده والطبرانى فى معجمه الأكبر (٦) ،فهذا يثبت لنا أن الطامحين إلى الإمارة استبقوا الوضع والاختلاق حتى أن القحاطنة فى اليمن وضعوا لأنفسهم أحاديث تبيحهم التملك والرياسة ، ولكنهم جعلوا حظهم فى ذلك بعد حظ المهدى لئلا يطعن الناس فى أحاديثهم فيكذبوهم ويفجروهم ؟ مصطفى جواد

(١) بشارة الإسلام ص ٣٦ — ٧ (٢) كذا ولعل الأصل : اصطخر (٣) بشارة الاسلام ص ٢٤٠ ـ ١ (٤) تاريخ بغداد للخطيب « ٩ : ٣٣٨ » (٥) الاكليل للهمدانى « ٨ : ٣٦٥» (٦) بشارة الاسلام ٣٨٥

(للبحث بقية)